هيئته المختلفة وإنجازاته الهامة ، لم يثر فى نفسه إلا فكرة العلاقة بين الرجل والمرأة ، ومدى ما وصلت إليه المرأة الفرنسية من تكشف وسفور وغواية ، وعاش أسير رغباته والوفاء لتقاليده ومعتقداته فى عذاب صامت لا يشعر به سواه ولم يعبر عنه إلا فى تساؤلات خافتة مستحية لأبيه ، وكان توجيه أبيه إرشادى وعظى منكر لما يفكر فيه ابنه مع أنها أمور طبيعية كان يستغرب ألا يفكر فيها . والزوجة « تقية » المرأة الفاضلة المدبرة راجحة العقل أفاءت عليه وعلى إخوته من حسن تدبيرها وحنانها ما مكَّنه أن يعيش فى طمأنينة وسلام ، تتدخل فى اللحظة المناسبة لتعبِّر عما تعانيه من ضيق الرزق فتشجع زوجها على السفر مع الإنكليزى ما دام فى السفر فوائد إصلاح أحوال الأسرة المعيشية وتأدية رسالة فى العلم ، ولا تفكر فيما تؤول إليه حالها بعد أن يتركها زوجها ويرحل ، وهو أمر مستغرب من الزوجة فى كل زمان فضلاً عن الزوجة الشابة فى ذلك الزمان . والشيخ «سويلم » الضرير الذى كان يملأ ميضأة الجامع فى القرية بالماء ، ثم أصبح شيخ الجامع - بصفة مؤقتة - بعد موت أبى علم الدين، ثم انتهى إلى أن أصبح شيخه الدائم صورة لذلك الإنسان الصامت الصابر الذى لا يتشكى ولا يتمنى حتى تحين الفرصة فينقض عليها كالصقر ويقتنصها ، ولعله أكثر شخصيات الكتاب قرباً إلى الشخصية الروائية لولا أنه ظهر فى ذلك الحادث العابر ، ثم